فنون مشهدية

على صفحة المسرحية على فايسبوك، يعرّفها القائمون عليها بأنّها «كوميديا الشعب المقهور والحاكم الفاسد اللامبالي بحاجات الناس وبحقوقهم وأحلامهم». مع إدمون حداد، وأمل طالب، وهشام خداج، وربيع أيوب، وسالي فواز وبيان ضو، يقدّم المخرج هشام زين الدين عملاً يعكس واقعنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المأزوم من بوابة السخرية والضحك

«كوميديا العبابيد»: واقعنا على حبل غسيل

غادة حدّاد

من المسرحية

قرية العبابيد تشبه بسماتها المجتمع اللبناني. أناس بسيطون، يحلمون بالقليل، في حين أنّ هذا القليل هو أقل حقوقهم. الناس ومصائرهم معلقون على حبل غسيل. هم الدمى، تتحرك وفق أهواء الوزير، ولو اقتصرت على قضاء حاجاته. على خشبة «المركز الثقافي الروسي»، يقدم هشام زين الدين مسرحية «كوميديا العبابيد»، بمشاركة هشام خداج، ادمون حداد، امل طالب، ربيع ايوب، بيان ضو وسالي فواز.

تجسّد المسرحية علاقة السيد بالعبد، في إطار كاريكاتوري. الخضوع التام جلي هنا، رغم وعي الناس لمرارة واقعهم، وضعف حيلتهم بالتغيير حيناً، ورفضهم له أحياناً، خوفاً من بديل مجهول. الصوت المعارض بينهم شاذّ ومرفوض و«مجنون». لطالما يظهر كغبي يرفض الواقع، وبالتالي يسير برجليه إلى الهاوية، في حين أنّه هو صاحب القول الواقعي والمنطقي، وحتماً غير مرحب به بين قوم يمشي في درب واحد، من دون مساءلة ولا نقد.

زيارة عابرة أصرّ السكان على إعطائها أبعاداً أكبر، وتحليل ما جاء على لسان الوزير، بحثاً عن لفتة يخصهم بها، أو أمل بعيد المنال. هذا الإله الذي حل عليهم فجأة، أعطى صاحب المنزل مكانة أرقى بين عائلته وسكان قريته، تحول من «عبدو» إلى «الأستاذ عبدو»، فهو رأى الوزير وتحدث معه. وبات من يروي تفاصيل الحادثة يتحدث بثقة، كمن ينقل كلام الله. يضيف «عُبيد» (هشام خداج) كلاماً على لسان الوزير، يهين ويحتقر القرية وسكانها، فيبادلونه بالقبول والتصفيق.

تتوالى الأحلام باللقاء الثاني به، ومعها تتوالى المطالب، منها الدخول إلى «الجاندرما» الذي بات حلم الشباب اللبناني، حيث المعاش والطبابة والتعليم مؤمّنة، في ترجمة لعلاقة الزبائنية بين الشعب وحكامه. نظموا عرساً مطابقاً للحفلات الانتخابية. زغاريد وأشعار ولافتات تملأ الشوارع، مقدمة من سكان القرية أو أصدقاء الوزير.

عودة الوزير الثانية إلى القرية جاءت كبصيص أمل، لأجله زيّنت القرية، وجلس السكان في انتظاره. منذ لحظة وصوله، فرض سيطرته المطلقة على السكان. استطاع بسهولة أن يفتن بينهم، بجملة واحدة تتردد بشكل كوميدي، وهي في الواقع ترجمة لإذلال الناس «مش عارف حالك مع مين عم تحكي؟». لكسب رضاه مجدداً، تضرب الزوجة زوجها وأخاها ويضرب الأخ أخاه. لهذه الدرجة يمتلك الوزير القدرة على تأليب أهل البيت الواحد على بعضهم البعض. تنتهي عاصفة الفرح بنكسة معتادة، ليعود الدمى والسكان إلى أماكنهم المحددة لهم على حبل الغسيل. «العمل هو إدانة للناس لا الزعماء» يقول مخرج العمل هشام زين الدين لـ «الأخبار». يريد زين الدين من الجمهور أن يفكر لماذا يؤلّه الزعيم والمسؤول، حتى مدير في دائرة رسمية يغدو إلهاً. الجميع يريد كسب رضاه. يعلّق زين الدين: «هذه حقوقي البديهية، لماذا أتعامل مع كل مسؤول بهذه الدونية؟». ويرى أنّ الناس لا يريدون أن يغيّروا، فلو أرادوا لاستطاعوا ذلك.

> تجسّد المسرحية علاقة السيد بالعبد في إطار كاريكاتوري ساخر

مضمون العمل سياسي- اجتماعي، يترجم واقعاً مأساوياً وقاسياً، جعل الناس يحلمون بلفتة من وزير، وزيارة عابرة والعيش في حلم سؤال الوزير لهم عن مطالبهم واحتياجاتهم. أراد زين الدين تقديم العمل بطريقة كاريكاتورية ساخرة ليطرح القضية ويضيء على مشكلة التبعية والخضوع في المجتمع اللبناني، تاركاً الخيار للجمهور في كيفية التعامل مع ما قدم.

أمل طالب التي شاركت في مسرحية زين الدين السابقة «زيارة السيد الوزير»، اشتهرت في السنة الأخيرة على مواقع التواصل الاجتماعي بسبب فيديواتها القصيرة التي تناولت مشاكل يومية واجتماعية في المجتمع اللبناني. تميزت طالب بلهجتها البعلبكية، فانضمت إلى فريق عمل «لهون وبس» على lbci في موسمه الأخير. لكنها تعتبر أنّ المسرح هو الأساس، فهو الباب الذي أدخلها عالم التمثيل والتلفزيون. تعود طالب إذاً في هذا العمل إلى خشبة المسرح بدور «عُبيدة». تصف العمل بأنه ترجمة للواقع بشكل كوميدي، فالناس ضاقوا ذرعاً بالوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهذا العمل لا يمكن تقديمه بطريقة درامية. وتضيف: «نجسد واقعاً بسيطاً جداً، ما يريده الناس ومطالبهم الأساسية، ما نود قوله هو ألا يستغبوا الناس، فهم على دراية بما يحصل وموافقون على المشاركة في هذه اللعبة».

من جهته، يرى أدمون حداد أنّ هدف المسرحية سياسي، «فكل فعل في الحياة هو فعل سياسي. العمل يجسد واقعاً نعيشه، فالناس راضون بأن يُحكَموا بهذه الطريقة، وهذا ما يحدث في الواقع، فخطايا الزعيم دوماً مغفورة. الفضائح اليومية تمر مرور الكرام، ولا أحد يحاسب». يعزو حداد الأمر إلى خمول وقيود تحاصر الناس، إلى جانب طبقات من الخوف والقمع والحاجة.

حداد الذي يعمل على مشروع «أونلاين» يبصر النور قريباً، ليس مستعداً للعودة إلى شاشة التلفزيون. يعلّق: «لا يتحمّلونني ولا أتحملهم، نختلف كثيراً بدءاً من سقف الحرية إلى شكل البرنامج وصولاً إلى التمويل المشروط فيما المسرح هو مساحة للحرية وللتسلية والتجربة».

«كوميديا العبابيد»: الخميس والجمعة والسبت ـ 20:00 ـ «المركز الثقافي الروسي» (فردان ـ بيروت). للاستعلام: 03/886092

أحوال المهنة

في «نقابة الصحافة»... اجتماع «استثنائي» لإنقاذ المهنة

زينب حاوي

عند الساعة الحادية عشرة من ظهر أمس، كان يفترض بأهل الصحافة، الذين دُعيوا إلى «نقابة الصحافة» (الروشة)، أن يحضروا ما أطلق عليه بـ «الاجتماع الاستثنائي»، الذي ضم نقابتَي الصحافة، والمحررين. لكنّ الحاضرين فوجئوا بأنّه عليهم الانتظار خارجاً مدة نصف ساعة تقريباً، بينما يجهز بيان النقابتين. بلبلة أحدثتها هذه الخطوة التي جاءت بعد بيان أصدرته «نقابة المحررين» يوم الجمعة الفائت، أدرجَت فيه بنوداً كثيرة تتعلق بقرارات وخطوات مستقبلية، وتحديداً فتح باب الانتساب إليها من القطاعات الإعلامية كافة (المرئي، المسموع والإلكتروني)، وتأمين التغطية الصحية للعاملين في هذه القطاعات من قبل «الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي»، وإنشاء صناديق للتقاعد، والتعاضد، والتعاقد أيضاً. في قاعة الاجتماعات في «نقابة الصحافة»، جلس نقيب الصحافة عوني الكعكي، وإلى جانبه نقيب المحررين جوزيف قصيفي، وثلة من أعضاء النقابتَين (غاب عدد لافت منهم)، مع تسجيل حضور هزيل لوسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة وحتى المرئية التي اكتفت بإرسال مصوّريها دون مراسليها. مشهدية لا مبالية ربما بما تنوي النقابتان تلاوته على الإعلام، وغياب أي رغبة في مناقشة أحوال المهنة المتداعية. بعد نصف ساعة، دخلت الكاميرات إلى القاعة، وبدأ الكعكي بتلاوة البيان، لكنّه عجز عن القراءة لمرّات، وتلعثم أمام ورقة دوّنها قصيفي أمامه. هنا، أوقف التسجيل، وطُلب من الإعلام المرئي الانتظار لمدة بسيطة، ريثما تعاد كتابة البيان، ويصبح واضحاً وسهل القراءة بالنسبة إلى الكعكي. وهكذا كان. في الخلاصة، رمى هؤلاء الكرة في ملعب الدولة. مصطلح تكرّر مرات عدة، مع تحميلها مسؤولية مباشرة لما آلت إليه أوضاع المهنة، وحثّها على مساندة القطاع اليوم. ربما، هي استفاقة متأخرة، لنقابة يرأسها الكعكي منذ أربع سنوات، ولنقابة أخرى (المحررين)، خرجت بهذه القرارات بعد أربعة أشهر من انتخاب قصيفي نقيباً لها. بعد اعتبار مهنة الصحافة على لسان الكعكي «رأس حربة الديمقراطية والحرية»، كشفت النقابتان عن إعدادهما مذكرة تتوجهان فيها إلى «كبار المسؤولين من أجل حماية المهنة، وفتح ورشة تشريعية من قبل محامي النقابتين»، لتحصيل حقوق العاملين داخل «المحررين»، وتوفير حوافز وتقديمات لهم، مع فتح باب الانتساب لكل قطاعات الإعلام في لبنان. ولفت قصيفي إلى أنّ الورشة التشريعية مختلفة المسار عن تعديل قانون «نقابة المحررين»، الذي أضحى على طاولة مجلس الوزراء، وإدخال تعديلات على قانون «المطبوعات». ولدى سؤاله عن هذا المقترح الذي أطلقه وزير الإعلام السابق ملحم رياشي، والذي تتشابه نقاطه مع ما يُطرح اليوم، جزم قصيفي بأن المقترح أتى في الأساس بمبادرة من «المحررين» «منعاً لأي التباس». ولدى سؤال «الأخبار» عن وسائل حماية الصحافيين قانونياً، لما يتعرضون له من استدعاءات، خارج إطار قانون المطبوعات، ردّ الكعكي بأن على هؤلاء أولاً الانتساب إلى النقابة، ليصار بعدها إلى حمايتهم قانونياً. لكن فكرة الانتساب نفسها، كانت مقفلة على أغلب الجسم الصحافي، وهذا ما حاول نقيب «الصحافة» الاختباء خلفه، معتبراً أنّ هناك تقصيراً من الدولة وممن أسماهم بـ «الأشخاص». أما قصيفي، فكان واضحاً في هذه النقطة، مؤكداً أن المكان الوحيد لمساءلة الصحافي يكمن في الرجوع إلى أحكام «المطبوعات»، مع إقراره بوجود إشكالية ترتبط بالإعلام والقضاء والمؤسسات الرسمية، وتحتاج إلى دراسة.

وجوه من الماضي

مَن يذكر المتنوِّرة الثائرة على الظلم والفساد في لبنان

ماري حدّاد... وحسبُكِ في هذا النضال أن تكوني إميل زولا!

ماجد مهدي *

تعرّفتُ إلى ماري حدّاد في صيف عام 1969، في منزلها القائم في منطقة «زقاق البلاط» في بيروت، وكانت، آنذاك، في العقد الثامن من عُمرها. كانت مُصابةً بمرض تقوُّس الظهر بفعل وطأة السنين التي راكمَتْها في رحلة العمر. لكنّها كانت شامخة الرأس كعهدها عندما جابهَت ظُلمَ ذوي القُربى الذين حكموا لبنان في أربعينيّات القرن الماضي، واعتدَوا على حرّيّتها الفكريّة، خلافاً للدستور والقوانين. في تلك الحِقبة، استلّت قلمها كما يُستَلُّ السيفُ اليمانيُّ من غِمده، وأعملَتهُ في كبريائهم وصلَفِهم، وظُلمهم وفسادهم، فعفّرَت رؤوسهم، ولم تُخفِّضْ رأسها لأحدٍ غير الله والحقّ! وقد خاطبها، عهدذاك، الصحافيُّ السوريّ الكبير جبران مسُّوح، صاحب جريدة «المُختصَر» الصادرة في بوينس إيرس في الأرجنتين، في رسالةٍ بعث بها إليها، في معرض دفاعه عنها، فقال: «الحادثُ بجُملته شبيهٌ بحادث دريفوس في تاريخ فرنسا. وحسبُكِ في هذا النضال أن تكوني إميل زولا. ولكنْ لا بأس يا ماري. وعلينا أن نُوقظ هذه الأُمَّة لإنقاذ ضميرها من الهلاك!».

كانت ماري حدّاد أديبةً مرموقة تكتبُ باللغة الفرنسيّة، وتُجيدُها إجادة أدباء فرنسا الكبار. وكان القلمُ رفيقَ ساعاتها وسميرَ أيّامها، يشوقُه دوماً أن يتسلّل إلى يدها ليتبرّكَ منها، ويُلملِمَ ما أمكنه من قبَساتٍ فكرها ليُعلّقَها فوق القراطيس نُجيماتٍ تُضيءُ الدروب. صدَر لها كتاب «الساعات اللبنانيَّة» Les Heures Libanaises عام 1937، في بيروت؛ وهو مجموعةٌ من القصص القصيرة زيّنَتها بعضٌ من لوحاتها الفنّيّة. وقد أطلق المستشرق الروسيّ، فلاديمير بلوندين Vladimir Blondin، عميد كلّيّة الدراسات الشرقيّة في جامعة سانت بطرسبورغ في روسيا، عليها لقب «المُنوِّرة اللبنانيّة» أُسوةً بالمُنوّرين اللبنانيّين سليم البستاني (1848-1884) وجرجي زيدان (1861-1914) وفرح أنطون (1874-1927) وجبران خليل جبران (1883-1931) الذين كانوا من روّاد الحركة التنويريّة الواسعة التي شملت مصر وسوريا ولبنان وغيرها من الأقطار العربيّة في الستّينيّات من القرن التاسع عشر إلى جانب عددٍ آخر من المفكّرين والأدباء والسياسيّين العرب التقدّميّين.

وكانت ماري حدّاد كذلك فنّانةً موهوبة بدأت مسيرتها مع الرسم عام 1920 بدافع الرغبة الشخصيّة لا غير. لكنّها عادت فحصّلَت بعض التدريبات الفنّيّة، خلال عامَي 1924 و1925، على يد الفنان الفرنسي كوبير Kober الذي كان يمتلك مدرسة للفن في بيروت، في ذلك الزمن. وقد اتّسعت شهرتُها بسرعة نظراً لشغفها الكبير في رسم البورتريه لبعض مواطنيها، وبخاصّةٍ البدو منهم، ولمناظر الطبيعة الجميلة في لبنان، وحازت لقب «فنّانة البدو» Bedouin Artist نظراً لاهتمامها الكبير بهذا الجانب الفنّيّ، وإبداعها فيه.

في عام 1930، أصبحت رئيسةً لجمعيّة الفنّانين اللبنانيّين. وفي عام 1933، دعاها السفير الفرنسي في لبنان، الكونت دي مارتل Le Comte de Martel، إلى إقامة معرض لأعمالها الفنّيّة في باريس، فلبّت الدعوة. وقد كانت الفنّانةَ الأولى والوحيدة من لبنان التي مُنحَت القبول بالمشاركة في «صالون الخريف الخاصّ بالقصر الكبير» Le Salon d›Automne du Grand Palais. بعد ذلك، أُقيم أوّلُ معرضٍ خاصّ بلوحاتها في غاليري جورج برنهايم Galerie Georges Bernheim في باريس، فاقتنت الدولة الفرنسيَّة إحدى لوحاتها، وكانت تُمثّلُ منظراً لجبلٍ في لبنان. وقد كتب الناقدُ الفرنسيُّ الشهير لوي فوكسل Louis Vauxcelles، آنذاك، دراسةً قيّمةً عنها خصَّ بها كاتالوغ برنهايم الفنّي. واستمرَّ في دعمه لأعمالها طيلةَ مسيرتها الفنّيّة. وقد بقيت حدّاد تُتابعُ عرضَ أعمالها كلّ عامٍ في غاليري برنهايم، ولم تتوقَّف عن ذلك إلاّ في عام 1940 عندما اندلعَت شرارةُ الحرب العالميَّة الثانية. كما قامت بعرض أعمالها الفنّيّة في لندن ونيويورك، فبرزَت كفنّانةٍ مُتميّزة في جناح جمهوريَّة لبنان في المعرض العالميّ في نيويورك لعام 1939. وكان لها حيِّزٌ في «معرض كليڤلاند الدولي» لعام 1941.

اتّصف أدبُ ماري حدّاد وفنُّها بنزعةٍ إنسانيَّة ومَسحةٍ جماليَّة هما في أساس خلودهما على مرّ الزمن. فكلاهما أشبهُ بقبساتٍ مُضيئة فاضت من نفسٍ مُتساميةٍ شاعرةٍ فيها من النُّور ومن التوق إلى الأعلى ما يُجنِّبُها التعثّر في الظُّلمة، ويُبعدُها عن جاذبيَّة الأهواءِ والرغبات، ويَشيلُ بها صعوداً نحو عين الشمس!

تلك السيِّدة، بكلِّ ما كانت عليه من مثاليَّةٍ وخُلُقٍ رفيع، وجدَت نفسَها، هيَ وأُسرتها، في أحد أيّام عام 1942، في حضرة رجُلٍ تبيَّن لها بالدليل القاطع أنّه رجُلُ الحقيقة الخالدة؛ رجُلُ الهَدْي والمحبَّة والإيمان بالله وبالروح في عالمٍ غارقٍ في المادية والفساد! رجلٌ يعدُّ من أبرز مُمثّلي الأدب الإنساني، و«يأتي المعجزات، بفضلٍ من الله، من أجل إثبات حقيقةِ وجوده، ووحدةِ أنبيائه ورسالاته، ويُناهضُ التعصُّب بكلّ أشكاله، ويهزأُ بالأمجاد والألقاب، ويؤمنُ بعدالة الله ويُسلّمُ بمشيئته! كان الدكتور داهش ذلك الرجُل! ولقد وجدَت ماري حدّاد فيه ضالَّتها المنشودة، والحُلمَ الذي كان يراودها منذ الطفولة! لم تصدّق في البدء ما نُقل لها عنه، إلى أن جاءَت إليه بنفسها، مُصطحبةً زوجها الأَديب جورج حدّاد وبناتهما الثلاث، للتحقّق من صحّة ما سمعوهُ عنه. هناك، لمسَت الحقيقة لمسَ اليد، وشاهدَت بأمّ عينها ما سمعَتْه عنه بأذنها، وأيقنَت أنَّ ذلك الطالعَ من وطن أرز الربّ يَحمل أمانةً سامية، لا لوطن الأرز وأبنائه فحسب، بل للدُّنيا بأسرها وشعوبها قاطبةً، وأنَّه لن يتوانى عن تأديتها مهما عظُمت المصاعب وغلَت التضحيات! وأعلنَت تأييدها له في دعوته؛ وكذلك فعلَت أُسرتُها. ومُذاك، لم يعد إيمانُها مقتصراً على السيِّد المسيح ورسالته فحسب، كونها مسيحيَّةَ المولد والنشأة، بل أصبح يحتضنُ أنبياءَ الله ورسالاتِهم، بلا استثناء، بمن فيهم النبيّ محمَّد (ص) ورسالته. وقد أعلنَت وزوجها جورج حدّاد عن قناعاتهما تلك على رؤوس الأشهاد، ما أثار عليهم أقرباءَهم وسواهم من وجوه التعصُّب المقيت في لبنان ممَّن كان لهم نفوذٌ في السُّلطة في تلك الحِقبة. لم يمضِ زمنٌ طويل حتى تسنّمَ صهرُها بشاره الخوري سدَّة رئاسة الجمهوريَّة، فراح يضطهد الدكتور داهش، مُقحِماً جميع السلطات القضائيَّة والأَمنيَّة والصِّحافة في الاعتداءِ عليه، بالظلم والافتراء، وخلافاً للدستور والقوانين. وقد أدَّى ذلك الاضطهادُ إلى تجريد الدكتور داهش من جنسيَّته اللبنانيَّة، ونَفْيه إلى الحدود السوريَّة التركيَّة في محاولةٍ للقضاءِ عليه، بمُقتضى مرسومَيْن ظالمَيْن صادرَيْن عن رئيس الجمهوريَّة، من غير أن يُقدَّم للمحاكمة، ومن دون أن يُبلَّغ بما صدَر بحقِّه من أحكام.

ماري حدّاد في أربعينيّات القرن العشرين

> اتّصف أدبها وفنُّها بنزعةٍ إنسانيّة ومَسحةٍ جماليّة

لكنَّه تمكَّن، بعد أكثر من شهر، من العودة سراً إلى بيروت، مُرفقاً بعناية الله. ومن مُحتجبه القسريّ فيها، احتكم إلى قلمه، سلاحه الوحيد في مواجهة مُضطهديه والدفاع عن قضيَّته العادلة، وفي المطالبة باسترداد حرِّيّاته وحقوقه. وقد دامت تلك الحرب القلميَّة ثماني سنواتٍ متواصلة، ولم تتوقَّف إلا بعدما ثار الشعبُ اللبنانيُّ على ذلك العهد وأسقطه إلى غير رجعة.

كانت القضيَّةُ في نظر الدكتور داهش قضيَّةَ الحرِّيَّة الفكريَّة بامتياز، فانبرى يُسجِّلُ أَحداثَها بنفسه في عشراتٍ من الكتب التي باتت تُقرأُ اليوم على أَنَّها جزءٌ من تاريخ الاضطهادات الكبرى في تاريخ الإنسانيَّة. وقد بدَت ماري حدَّاد من خلالها كالرئبالة الجريحة التي تأبى الضَّيْم، فلا تهدأُ حتَّى تَنتزعَ حقوق المَظلوم من ظُلاَّمه! منذ اللحظة الأُولى للاَعتداءِ عليه، استلَّت قلمها النبيل، وراحت تُدبِّجُ البيانات إلى أَبناءِ وطنها، وإلى رئيس منظَّمة الأُمم المتَّحدة، وسفراءِ الدول وقناصلها المُعتمَدين في لبنان، ورؤساء وملوك الدول العربيَّة، شارحةً لهم فيها حقيقة مبادئ الدكتور داهش وأَهدافه، وتفاصيلِ الجريمة المُرتكَبة بحقِّه، ومُطالبةً إيَّاهم بالتدخُّل العاجل لوَقْف تلك المَظلِمة وجرِّ مرتكبيها أَمام العدالة. وقد صدرت كتاباتُها تلك في كتبٍ عدَّة إلى جانب كتب الدكتور داهش؛ وكانت جميعُها طافحةً بأَخبار المظالم في البلاد وسرقات المسؤولين لأَموال العباد. والجدير بالذكر أَنَّ بعضاً من صِحافيِّي المهجر وأُدباءِ البلاد العربيَّة أَسهموا، هم أَيضاً، في إظهار الحقيقة في القضيَّة، من قبيل الدفاع عن الحرِّيَّات التي كانت في جوهرها. وقد كان أَسلطَهم قلماً وأَبدعَهم أُسلوباً وأَكثرَهم صرامةً في دفاعه الصحافيُّ جبران مسُّوح.

وكان من نتيجة تلك الحملة القلميَّة أَن أُوقفت ماري حدَّاد، وسُجنَت أَكثر من مرَّة، وزُجَّ بها في مستشفى المجانين المسمَّاة «العصفوريَّة» لتقضي فيه 73 يوماً مع فاقدي نعمة العقل، بالظلم الرهيب. لكنَّ المسؤولين خافوا من مغبَّة التمادي في إبقائها خلف تلك الجدران المُرعبة، فأَطلقوا سراحها. وفور خروجها منه، كتبَت مذكِّراتها عمَّا شاهدته من جرائم ارتُكبت في ذلك المكان الجهنَّميِّ الحافل بالويلات. وقد رأَيتُ أَن أُقدِّم شذَراتٍ مِمَّا جاد به قلمُها ضمن البيان الذي رفعَتْه إلى أَبناءِ وطنها، وناشدَتهم فيه أَن يرفعوا الصوت عالياً ضدَّ الجَوْر، وأَن يحتجُّوا معها باسم الحقيقة وباسم الحرِّيَّة، على حدِّ قولها. وها هي:

«إنّني أَشهدُ أَمام الله أَنَّ الدكتور داهش هو مثالُ النبالة والشرف. وهو بتعاليمه السامية يَنشُدُ أَرفع وأَطهَر ما يصلُ البشرُ إلى معرفته من أَخلاقٍ كريمة وآداب رفيعة، ويُعلنُ لإخوانهِ أَنَّ الحياة لَيست إلَّا مرحلةَ تجربةٍ وتهيئةٍ لحياةٍ ثانية، وأَنَّ العدالة الإلهيَّة تقتصُّ من الأَشرار وتُكافئُ الأَخيار».

«إنَّ الدكتور داهش يُنادي بالإخاء بين البشر قاطبةً مهما اختلفَت عناصرُهم وتعدَّدَت شرائعُهم، ويُبشِّرُ بضرورة التعاون بين أفراد المجتمع ليزول الشقاءُ والفقر، مُعلناً أَنَّ الناس مُتساوون أَمام الله، وأَنَّ القُدوة الحسنة هي خيرُ موعظة...»

ويُوافيها قلمُ جبران مسُّوح، مُدافعاً عن الدكتور داهش وعنها، على غير معرفةٍ شخصيَّةٍ بكليهما، فيقول: «إنَّ داهشاً يفتخرُ بمقابلة كبار المُصلحين في التاريخ ليَبحثَ معهم حالَ هذه الإنسانيَّة التعِسة التي تنتقلُ من شقاءٍ إلى شقاء، ومن خطرٍ إلى خطر. هو يفتكرُ بهذا الشرق البائس الحزين الذي كان مهبطَ الذكاءِ البشريّ، فأَصبح أُلعوبةً بين أَيدي التخاذُل والانقسام. هو يَجمعُ أَقوالَ جميع المُصلحين الشرقيِّين ليَستخرجَ منها قوَّةً واحدة تَجمعُ الشمل وتُوحِّدُ الغايات وتؤلِّفُ بين القلوب...».

كما يُخاطبُ ماري حدَّاد، فيقول: «إنِّي أَحترمُ جهادكِ العنيف وصبركِ على مقاومة الخصوم... وهذا الحادث هو أَعظمُ حادثةٍ جرَت في الشرق في هذا الجيل. وإنِّي كلَّما قرأتُ تفاصيلها، أَرى ماري حدَّاد فوق الجميع. بل أَنتِ فوق لبنان، كلِّ لبنان.. لأَنَّكِ تدافعينَ عن مبدأ وعقيدةٍ دفاعاً قصَّر عنه جميعُ الرجال. اكتُبي لي لأَسمع صوت سلامتكِ، يا حمامةً بين قطيعٍ من الذئاب».

■■■

قُبيل اليوم الأَخير من عام 1972، حضرتُ إلى مستشفى «أُوتيل ديو» Hôpital Hôtel-Dieu في بيروت للاطمئنان على صحَّة ماري حدَّاد، فرأَيتها في شبه غيبوبة. وفي اليوم الأَوَّل من عام 1973، فارقَت الحياة، فرافقَها رهْطٌ من ملائكة الله إلى العالَم السعيدِ البعيدِ المُعَدّ للأَبرار الأَحرار من أَمثالها! في تلك الربُوع القُدسيَّة، غدَت تلك «المُنوِّرة اللبنانيَّة» نَجمةً سعيدةً تشعُّ في الآفاق، وتزيدُها نوراً على نُور! وقد ضمَّ «مُتحف داهش للفنّ» Dahesh Museum of Art القائم في «مانهاتن» في نيويورك بعض أَعمالها الفنِّيَّة. مَن يدري، فلعلَّ تلك الأَعمال تشعُّ، هي أَيضاً، بأَنوار الجمال الإلهيّ فتُضيءُ قلوب أَبناءِ الحياة!

* كاتبٌ لبنانيٌّ مُقيم في كندا